الفصل الأول
التصوف فى مفهوم الإمام محمد عبده

obeikandi.com

تمهيد:

الأفكار نوعان ، نوع يحيا فى العقول والقلوب حتى لو كان أصحابه أمواتاً فى القبور ، ونوع يموت ولا يحيا حتى ولو كان أصحابه أحياءاً يرزقون . **النوع الأول** هم المفكرون والمصلحون الذين عاشوا مشكلات أوطانهم فكانوا لها مصابيح هداية يكشفون مواطن الداء ويحددون لها الدواء ، وهؤلاء هم المفكرون العظام الذين يستحقون الاحتفاء بهم والإشادة والإعادة بل والتنبيه على أهمية أفكارهم إذ هى التى تعنينا نحن المعاصرين لأنها ألصق بحياة الأمم ومشكلاتها ، ولأن فيها جهد قرائح هؤلاء المبدعين والمفكرين ، وهذا ما نجده لدى جمال الدين الأفغانى (ت1897م) والإمام محمد عبده (ت1905م) ومحمد رشيد رضا (ت1935م) ومصطفى عبدالرازق (ت1947م) وغيرهم.

إن كل هؤلاء يجمعهم شيء واحد هو أن لهم رسالة يتمسكون بها ويحرصون على القيام بها ، وتلك هى إصلاح حال الأمة الإسلامية فى هدى من أصول عقيدة الإسلام وشريعته والحفاظ فى الوقت ذاته على خصوصية هذه الأمة وحضارتها بغير عصبية ممجوجة أو عرقية ممقوتة، فهذه أو تلك ليست من دين الإسلام ولا من اعتداله وسماحته . من هنا تجيء أهمية أفكار هؤلاء المصلحين العظام ومن بينهم الإمام محمد عبده بوصفه مفكرا ومصلحا دينيا مستنيراً ، بل هو واحد من أعظم المصلحين والمجددين فى عالمنا العربى الإسلامى المعاصر . وإزاء عظمة هذه الشخصية وثراء فكرها لا يملك المرء بصدد الكتابة عنه[1] إلا لمحات

---

(1) احتفالية الإمام محمد عبده – الجمعية الخيرية الإسلامية – القاهرة – 25 فبراير 2005.

تكشف عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف من خلال مؤلفاته الثرية ثراء روحه الصافية وعقله الواعى المستنير .

وليس يعنينا هنا الإبانة عن حياته الشخصية ، أعنى بداياته الأولى التى تلقى فيها بعضاً من تعاليم الصوفية على يد واحد من شيوخ الطريقة الشاذلية هو الشيخ درويش خال أبيه[1] ، فقد كان هذا الشيخ نموذجاً للصوفى الكامل علما وعملاً . وليس من قصدنا هنا الإبانة عن الجوانب العملية التى أفادها من شيخه ، وإنما قصدنا إماطة اللثام عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف الذى يرتضيه إمامنا بحسب أصول الإسلام عقيدة وشريعة.

فإن سأل سائل وأى فائدة تعود علينا نحن المعاصرين من إثارة هذه القضية؟ فالجواب عن ذلك تلك الإشارات التى تحويها كلمات شيخنا عن حقيقة الحياة الروحية والتصوف الناصع الذى يراه نبراساً لنا نحن أبناء هذا العصر بكل ما فيه من مادية مسرفة ، لأن عصرنا هذا وباعتراف الغرب نفسه كانت تقدم الحضارة فيها بمفهومها المادى أكبر بكثير من تقدمها الروحى[2] . ولكى لا يكون هذا الجواب مصادرة منا على المطلوب، يحسن أن ننتقل إلى بيان محتويات بحثنا .

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تقديم وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، دار الشروق ، القاهرة 1414هـ/1993م ، الجزء الثانى ص322 وما بعدها ، وأيضاً جـ3 ، ص346 وما بعدها ، ص 546 وما بعدها.

(2) ألبرت اشفتيسر: فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1963 ، ص 107.

obeikandi.com

أولاً : الدين والحياة الروحية:

قد يكون من المفيد قبل أن نكشف عن ملامح الحياة الروحية عند الإمام محمد عبده أن نبين أولاً مفهوم الدين كما حدده الإمام ليتسنى لنا فى ضوء هذا المفهوم الكشف عن صلته الوثيقة بالحياة الروحية بوصفها تجلياً من ناحية ، ولنتبين فى الوقت ذاته كيف أن هذه الحياة الروحية لا تنفك بدورها عن الكمال الأخلاقى من حيث أن الدين كذلك لا ينفصل عن الأخلاق من ناحية أخرى . وبدهى أن مرادنا هنا الحديث عن الدين المنزل وهو الذى يعرفه الإمام محمد عبده بأنه وضع إلهى ومعلمه والداعى إليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين ، ومنقول عنهم بالبلاغ وبالدراسة والتعلم والتلقى[1] .

وإطلالة على هذا التعريف تظهرنا على جوانب مهمة داخلة فى نسيج الدين أو بعبارة أدق هى من صميم مكوناته ، فأول جانب منه هو أن الدين الصحيح هو الدين المنزل من قبل الله ومن خلال رسله وهم الأنبياء لقوله تعالى : {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}[2] ، وقوله تعالى فى شأن هؤلاء الرسل المصطفين {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[3] ، فالأنبياء إذن يدخلون فى ماهية

---

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية مع مقدمة للأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، دار سينا للنشر ، 1987 ، ص 51.

(2) سورة النساء : الآية 165.

(3) سورة الحج : الاية 75.

الدين الصحيح المبلغ لهم وحياً ، ومن ثم فهم بدورهم يدخلون فى تبليغ غيرهم ما يجب لله وما لا يجب ، ولكى يعرفونهم لما فيهم سعادتهم فى الدارين[1] وتعريف الدين أيضا على هذا النحو السابق لا يعنى أن الإنسان خلو من معنى الدين أو بالأحرى من معنى التدين ، إذ الإذعان لقوة عليا تهيمن على الكون بأسره من قبيل الأفكار المفطور عليها الإنسان ، ولذلك أصبح الدين عند الإمام محمد عبده أمراً مغروساً فى كل النفوس[2] .

وهذا يعنى أن الإقرار بالألوهية من قبل الإنسان شعور فطرى بداخله ، وهو الأمر الذى يؤكده الإمام من أن الإنسان لديه شعور بأن فوق العالم الذى يعرفه لأعيانه وخواصه ومنافعها ومضارها .. موجوداً غيبياً له السلطان والتصرف[3] . وهذه الفكرة التى يلح الإمام محمد عبده نعنى فطرة الإنسان على التدين وتؤكد على أن الدين كما يقول من قبيل الأفكار الفطرية لدى كل أفراد النوع الإنسانى ، ولهذا حق له أن يؤكد أيضا على أن الدين أول ما يمتزج فى القلوب ، ويرسخ فى الأفئدة ، وتصطبغ النفوس بعقائدها ، وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرد الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال[4] .

على أن هذا ليس هو المهم فى تعريف الدين باعتباره فكرة مغروسة أو فطرية فى النفس الإنسانية ، بل الأهم منه عند الإمام محمد

---

(1) محمد عبده : رسالة التوحيد ، مطبعة النصر ، القاهرة ، 1969 ، ص69، 70.

(2) الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 116.

(3) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 502.

(4) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 51.

عبده أن كل الأفراد الذين تستشعر ذواتهم معنى الدين يوقنون بعقائده متى عرفوها ، ويأخذون نفوسهم وأبدانهم بتكاليفه أو عباداته ، فلأجل ذلك كانت الأبدان كما يقول محمد عبده تتمرن على ما ينشأ عنه من أعمال ، الأمر الذى يعنى أن له السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها[1] .

إن هذا يعنى أن الدين والتدين يلازمان للإنسان منذ ولادته وكأنما الإنسان على حد قول الإمام فى نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين[2] ، ومن هذه الحيثية الأخيرة يحق القول بأن الدين أشبه فعلاً بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية[3] ، وهذا هو مفهوم الفطرة التى أشار إليها الحق تعالى بقوله : {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}[4] ، وقوله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}[5] .

ثانياً : الحياة الروحية والكمال الإنسانى :

---

(1) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص 114.

(2) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 51.

(3) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص 114.

(4) سورة الروم : الآية 30.

(5) سورة الأعراف : الآية 172.

لما كان الإنسان مفطوراً على التدين وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فهو بالتالى مهيأ لأن يعلو على لذاته المادية أو الحسية ليصل إلى أعلى كمالات الحياة الروحية ، وهو أى الإنسان إنما يحصل على تلك المزية لأن الإسلام كما يقول الإمام محمد عبده لم يبخس الحواس حقها كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها[1] . وإذا كان ذلك فالأحرى بالإنسان أن يحكم نسبته إلى عقيدة الإسلام أن يبذل الجهد ما وسعه ليحقق جدارته الإنسانية وكمالاته الروحية وهو قادر على ذلك إذ الإسلام قد جمع له أجزاءا حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتاً ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة واستبقاه كما يقول محمد عبده من أجل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى[2] .

وهذا الارتقاء الروحى للإنسان بحكم طبيعته الأصيلة لا يقف عند حد معين ، بل إن كل واحد من أفراد النوع الإنسانى فى دين الإسلام قادر على أن يصل إلى أقصى درجاته ، إذا الأمر مرهون بطاقته واستعداده فى الاتصال بالملأ الأعلى . ولهذا كان الإمام محمد عبده فى رأينا ألمعياً لما أشار وأكد على تلك المزية للروحانية الإسلامية ، إذ ليس فى الغريزة الإنسانية كما يقول أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها الساعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من

---

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 142.

(2) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف[1] .

فالحياة الروحية إذن أو لنقل الصوفية الإسلامية الصحيحة هى التى تفسح مجالاً لكل إنسان لأن يبلغ أعلى درجات العرفان والاتصال بالحضرة الإلهية مادام الأمر مُرهونا بالعمل والرغبة ، وهذا شأن النفوس التى بلغت شأنا فى كمال الإيمان والاعتقاد فحق بالتالى أن تكون أعمالها ثمرات لكمال إيمانها . ولهذا فقد أصاب شيخنا محمد عبده لما أكد بقوة على أن الأعمال الدينية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن[2] .

بيد أن هذه الحياة الروحية مشروطة بشرط الوسطية الإسلامية ، إذ الحياة فى الإسلام كما يقول محمد عبده مقدمة على الدين وأوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه وتملأ قلبه من رهبة وتفعم أمله من رغبة ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات فوق العادة[3].

ومعنى ذلك أن الحياة الروحية أو التصوف المشروع فى بين الإسلام لا يقتضى حرمانا للمسلم مما أحله الله من الطيبات بدعوى الزهد والتقشف ، ولا يوجب عليه كذلك أن يهمل فى مظهره بدعوى كمال

---

(1) المصدر نفسه ، ص 143.

(2) المصدر نفسه ، ص 50.

(3) المصدر نفسه ، ص 141.

obeikandl.com

مخبره ، فذلك كله مما لا يوجبه عليه منطق الإسلام عقيدة وشريعة . ذلك لأن الإسلام قد أباح له التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية[1] ، وآيات الكتاب الكريم دالة على ذلك كمثل قوله تعالى : {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[2] ، وقوله تعالى : {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[3] .

والحياة الروحية أيضا أو التصوف المشروع لا تعارض فيها مع العلم والأخذ بأسبابه من حيث إن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة من سواها نعيماً ولذة وهذا يحتم على الإنسان أن يسعى بكل ما أوتى من جهد للأخذ بأسباب الحياة والمكنة والرقى فى الحياة الدنيوية ، ولن يكون كل ذلك للإنسان إلا إذا أخذ بمنطق العقل وأداته نعنى العلم وهذا هو الذى يؤكده الإسلام للمسلم ، فقد سمح له أن يتمتع كما مر بنا من قبل بما يلذ له مع القصد والاعتدال ومن ثم أفلا يكون من لذائذ ومتممات نعيمه كما يقول الإمام محمد عبده "أن يسبح فى

---

(1) المصدر نفسه ، ص 141-142.

(2) سورة الأعراف : الآية 31.

(3) سورة الأعراف : الآية 32.

مملكة العلم ليمتع عقله كما يسبح فى الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهلـــه"[1].

وليس من قبيل الإسراف أن نعود لنؤكد على تلك الحقيقة التى تمثل خصوصية للحياة الروحية أو التصوف المشروع كما يقبله الإمام محمد عبده ذلك لأن ارتقاء الإنسان لبلوغ أعلى درجات الحياة الروحية ، لا ينبغى أن يسلبه للحظة واحدة ما استخلفه الله عليه ونعنى به عمارة الكون، ومن ثم فهو مطالب بالعمل فى الدنيا ومستعد فى الآن نفسه للآخرة . وهو فى الحياة الأولى لابد أن يحقق الغاية التى أعطاها الله أسبابها إذ المسلمون كما يقول محمد عبده مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوفر شىء من وسائل ذلك إلا بالعلم ، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان وتلقيه من أية شفة وأى لسان[2].

ولكى لا يبدو قولنا السابق مصادرة على المطلوب ، نعود لنؤكد أن الجمع بين الروحية ونزعة العلم لا تمثل إشكالية يصعب رفعها عند الإمام محمد عبده وكما هى فى تصور دين الإسلام إذ الجمع بين العقل والقلب لا مشاحة فيه ، من حيث إن الأول -العقل- يجول فى عالم الأسباب الظاهرة، والثانى -القلب- يجول فى مملكة الروح أو النوازع الجوانية للإنسان ، وليس بغريب أن يجمع الإنسان الوصفين معاً -العقل والقلب- عن الإمام محمد عبده إذ قد منحنا الله تعالى كما يقول العقل للنظر فى

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 145.

(2) المصدر نفسه ، ص 144-145.

الغايات والسباب والمسببات والفرق بين البسائط والمركبات ، والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس واللذات من لذائذ وآلام وهلع واطمئنان[1] .

وليس لقائل أن يتصور صعوبة الجمع بين الأمرين -بحكم التغاير أو المخالفة- العقل والقلب على نحو ما قد يتصور بعض السذج من أن هناك فرقاً بين العقل والوجدان فى الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة ، فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عن عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس . ومعنى هذا أن إمكانية الجمع بين العقل والوجدان هى التى تعطى للحياة الروحية أو التصوف فى التصور الإسلامى خصوصيته ، وتوضح فى نفس الوقت مزيته عن غيره من ضروب الحياة الروحية أو أشكال التصوف الأخرى .

فالعقل فى الإسلام أداة الإنسانية فى مجال الأخذ بأسباب الحياة الدنيوية والرقى فيها ، وهو -أى العقل والوجدان معا- وسيلة الإنسان فى الارتقاء إلى أعلى مراتب الكمال الروحى ومن ثم فالعلم الصحيح مقوم للوجدان ، والوجدان السليم كما يقول الإمام محمد عبده من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب وإذعان وفكر ووجدان ، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفردى وجودين[2] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص 183.

(2) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

obeikandi.com

ولهذا السبب فلا عجب أن يصبح المرء جامعاً بين حياة العلم وحياة التصوف ، ومن ثم كان الاندماج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم قوة السمو ، وهو شيء يمكن تحققه فى عالم الفكر[1] . ولعل فيما أوردناه آنفاً يؤكد ما سبق وأن أكدناه من قبل بشأن خصوصية الروحانية الإسلامية فهى لا تقطع المرء عن أن يأخذ بكل أسباب الحياة المادية من ناحية ، ولا عن أن يصل إلى أعلى مراتب الروحانية من ناحية أخرى.

ولعل فى هذا الجمع بين المادية والروحية على صعيد واحد هو الذى يمثل الصوفية الإسلامية الحقة وهو الأمر الذى اكتسبته من دين الإسلام أو بالأحرى عقيدته وهو أمر يعترف به المستشرقون المنصفون ، فقد أكد بطروشوفسكى على هذه الحقيقة لما قال بأن العقيدة الإسلامية تحقق للمسلم الأخذ بالحياة الدنيا والأخرى ، بل إن عنايتها بالمجال الروحى لا يقل عن عنايتها بالمجالات المادية والعلمية بخلاف غيرها من الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية[2] .

والحياة الروحية فى الإسلام وكما مر بنا من قبل متاحة لكل أفراد النوع الإنسانى ، فذلك يجعل للأولياء وهو من أعلى طبقات المؤمنين الصالحين مكانة عالية فى مدارك العرفان ولكنهم يظلون دون مرتبة الأنبياء . لكن ذلك لا يقدح فى مكانتهم ، فهم كما يقول الإمام محمد عبده أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفان ، مما لم تدن مراتبهم

---

(1) أبو الوفا التفتازانى : الإنسان والكون ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1975 ، ص97.

(2) بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران ، ترجمة الدكتور السباعى محمد السباعى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص 141.

مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومن ذاق عرف ومن حرف انحرف[1] .

إن هذه الحياة الروحية التى تسمح للإنسان بإمكان الوصول إلى أعلى مراتب الحياة الروحية أمر تؤكده نصوص القرآن نفسه ، فالله قريب من عباده بمقدار ما يقرب العبد منه وما على الإنسان إلا الإيمان الصادق والعمل الصالح . ومن ثم فليس بصحيح ما وقع فى ظن هانوتو من أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ذلك لأن الإسلام أقصى بالعبد إلى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه ، فقد قضى الإسلام بألا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى إليهما مقام الألوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الإنسان ويناله استعداده لا يحول دون حجاب إلا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره[2] .

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 431.

(2) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 104.

ففى الإسلام إذن حياة روحية تمكن المرء من أن يصل إلى أعلى الدرجات عدا مقام النبوة والألوهية وهذا يعنى أن الحياة الروحية تستقيم مع وسطيته إذ هى جامعة للعقل والقلب أو الوجدان معا وهذا هو الذى يعطى للروحية الإسلامية أو الصوفية الصحيحة قيمتها وخصوصيتها ، إذ قد جاء الإسلام كما يقول الإمام محمد عبده ليخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، ويبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله واحد فى جميع الأجيال وأن مشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن الله لا ينظر إلى الصبور وإنما ينظر إلى القلوب . ومن ثم فقد طالب المكلف برعاية جسده، كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهورا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الإخلاص[1] . وإطلالة على العبادات الإسلامية ، تؤكد أن كل واحد منها لا تنفك عن الأخلاق ، أو بالأحرى فيها من المضامين الروحية والخلقية ما لا حصر لها[2] .

---

(1) محمد عبده: الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 463 ، وانظر الأستاذ جمال الدين الأفغانى : رسالة الرد على الدهريين ، ترجمة محمد عبده ، مكتبة الإسلام العالمية ، القاهرة ، 1983 ، ص 64.

(2) انظر ما أوردناه تفصيلاً فى شأن الدلالات الروحية للعبادات الإسلامية فى بحثنا: الدين والأخلاق عند الإمام محمد عبده – الكتاب التذكارى عنه ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1995.

ثانيا : التصوف والأخلاق :

تتبدى قناعة الإمام محمد عبده بالتصوف فى صورته النقية الخالصة بوصفه وسيلة لتحقيق الكمال الإنسانى بجانبيه الروحى والخلقى فى آن واحد ، لهذا يؤكد أنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصوفى فى علم الأخلاق وتربية النفوس ، وأنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين ، وأن سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم ، وأخذ الأمر بقول الفقهاء فيهم ، فأولئك يكفرون وهؤلاء يعذبون ويقتلون حيث إنه قتل فى هذا البلد (القاهرة) فى يوم واحد خمسمائة صوفى على حد روايته[1] .

يعنينا فى قول الإمام الشطر الأخير منه ، ففيه تبدو قناعته بدور التصوف فى تكميل النفس الإنسانية بالفضائل ومكارم الأخلاق . وتلك ولا نزاع تشكل عنواناً لعلاقة الصوفى بغيره من الناس ، فضلا عن أنها تمثل عمق صلته بربه ، ولقد كان هذا دأب التصوف منذ نشأته فى القرون الأولى وبالتحديد الثالث والرابع الهجريين اللذين شكلا العصر الذهبى للتصوف ، فقد كان غرض الصوفية المسلمين فى هذه الفترة ينصب كما يقول الإمام محمد عبده فى تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجدانا فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة[2] .

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 551.

(2) المصدر نفسه ، جـ3 ، ص 552.

وتأكيد محمد عبده على هذه الوجهة الأخلاقية للتصوف الذى يرتضيه والذى كان يمثل أزهى فترات التصوف إبان نشأته الأولى يجعل العناية بالأخلاق والتحلى بمكارمها هى الصفة التى يتعين أن تميز كل أعمال المسلم المتحقق بكمال إيمانه وطاعته لربه ، لأن الله على نحو ما يؤكد الإمام محمد عبده ما فرض من الأعمال إلا لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق[1] .

وإشارة محمد عبده إلى ارتباط العبادات والأعمال بالأخلاق واهتمام الصوفية بهذا الجانب الخلقى يمثل قيمة لا يمكن التهوين منها فى رأينا ، وحسنا أن أكد عليها الإمام محمد عبده ذلك لأن التصوف فى تلك الفترة – القرنين الثالث والرابع الهجريين- كان بالفعل علما للأخلاق الإسلامية والتربية الروحية ، فقد كان جل عناية أغلب شيوخه موجهاً للناحية الخلقية، فليس كما يقول النورى رسما ولا علما ولكنه أخلاق[2] . ومن يرد أن يحقق التصوف بهذا المفهوم فليس عليه إلا الخروج من كل خلق دني والدخول كما يقول أبو بكر الكتانى فى كل خلق سني[3] .

وهكذا يصبح التصوف تخلية للنفوس عن كل الخصال والصفات الدنيئة وتحلية لها بكل الصفات والسجايا الحميدة ، وهو الأمر الذى جعل

---

(1) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص 149.

(2) السلمى : طبقات الصوفية ، تحقيق الدكتور نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1969 ، ص 167.

(3) السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف ، دار الكاتب العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1983 ، ص 15.

الصوفية يؤكدون على أدب النفس وأنه بالتالى عنوان الخلق انطلاقا من إشارة النبى (صلى الله عليه وسلم) "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" ، وبالتالى حرصوا على أن تكون العبادة فيها من كمال الظاهر وفيها من إخلاص الباطن ما يغذيها . وحق بالتالى أن يؤكد السهروردى البغدادى (ت632هـ) على أن يكون الأدب هو تهذيب الظاهر والباطن معاً[1] .

ومعنى هذا أن العمل والعبادة لله عند الصوفية المحققين لابد فيه من كمال أدب الظاهر والباطن معا ولابد من إتيانها –العبادة– على الوجه الذى يليق بها لتكون بالتالى تعبيراً عن مقام العبد بين يدى الحق ، ودليلا أيضا على حسن صلته بالخلق فى الوقت نفسه . ولعل ارتباط التصوف بهذا الجانب الخلقى الذى أكدناه من قبل وارتضاه الإمام محمد عبده هو الذى جعل الأئمة من قبله يؤكدون على أهمية التصوف من هذه الحيثية ، أعنى ارتباطه وعنايته بالأخلاق وكما يتطلبها دين الإسلام ، ومن ثم فقد حق لابن القيم (ت715هـ) أن يؤكد على هذه الوجهة الأخلاقية للتصوف فيقول : "واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق"[2] ، والدين كله خلق . ويزيد ابن القيم الأمر تأكيدا فيجعل الأدب هو الدين كله[3] .

---

(1) المصدر نفسه ، ص 276.

(2) ابن القيم : مدارج السالكين ، دار التراث العربى ، القاهرة ، 1982 ، جـ2 ، ص225 وما بعدها .

(3) المصدر نفسه ، جـ2 ، ص 276.

وبهذا يصبح التصوف تطبيقاً مثالياً للدين فى جانبه الخلقى ، وتلك مسألة مهمة فى رأينا ، إذ الدين لا ينفك عن الأخلاق ، بل إن حقيقته كما يقول ابن تيمية (ت 728هـ) من الأمور الباطنة ، ودين الإسلام فى عبادته كما يقول لا تنفصل فيه أعمال عن أعمال الجوارح الظاهرة[1] .

فإذا تبينا أن الأعمال الباطنة والتى هى حقيقة الدين كلها أمور مأمور بها فى حق العامة والخاصة عند ابن تيمية لأنها من أصول الإيمان وقواعده[2] . أدركنا على الفور البعد الأخلاقى للدين من ناحية وعناية التصوف بضرورة تحقيق هذا البعد من ناحية أخرى . ومن ثم تتأكد النظرات الصائبة التى أكدها الأئمة السابقون كابن تيمية وابن القيم وكشيخنا الإمام محمد عبده ، لأن الدين على وجه الدقة لابد وأن يتحقق فى النفوس وفى أعمال القلوب وفى الحياة وتجاربها الروحية[3] ، وتحقيق الدين على هذا النحو هو منتهى الكمال ، لأن الطقوس الدينية ليست غاية فى ذاتها بل وسيلة ، وينبغى كما يقول فلاسفة الدين أن يكون كذلك لتلائم تحقيق الغايات الدينية[4] .

وإذا كان هذا هو حد الدين على حقيقته ، فلا نزاع فى أن التصوف تحقيق للمثل العليا التى جاء بها دين الإسلام ، ومن ثم يصبح تعبيراً حقيقياً

---

(1) ابن تيمية : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، 1399هـ ، ص 38.

(2) المصدر نفسه ، ص 37.

(3) إميل (بوترو) : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ، ص 176.

(4) المرجع نفسه ، ص 245.

openkamal.com

عن المثل الأخلاقى الأعلى الذى يتعين على المسلم تحقيقه فى كل معاملاته ولابد له من مراعاته في كل تصرفاته . وقناعة شيخنا محمد عبده بهذه الفكرة تتبدى فى ضغطه على هذا البعد الأخلاقى فى التصوف إذ لا يتردد فى المجاهرة بفاعليته فى حياته الدينية ، نلمح هذا فى قوله : "كل ما أنا فيه نعمة من دينى أحمد الله عليها فسببها التصوف"[1] .

فالتصوف عند شيخنا بهذا المفهوم السابق يصبح إذن ضرورة ووسيلة فعالة فى تربية النفوس أخلاقياً ، ولأجل هذا كان لشيوخه فضل تهذيب نفوس العامة بل والخاصة ممن التفوا حولهم وبما أشاعوه فى نفوسهم من فضائل وما تحلوا به فى سلوكهم مع الحق والخلق فكانوا بالتالى قدوة لمريديهم . وإيمان الإمام محمد عبده بهذا الجانب فى التصوف نعنى التربية الخلقية ، تتجلى فى ما سجله تلميذه الأمين مصطفى عبدالرازق بشأنه ، وما تركه عليه -ويقصد الإمام محمد عبده- الشيخ درويش خضر خال أبيه عليه من أثر فى سلوكه فى سنى تكوينه العلمى الأول ، إذ يقول مصطفى عبدالرازق مبيناً أهمية الشيخ درويش من هذا الوجه : "ولا ينكر اثر الشيخ درويش بتربيته الصوفية فى نفس أستاذنا ، فإن ذلك الشيخ الصوفى وجه كل عواطف الشباب فى نفس الفتى إلى اللذائذ القدسية لذات العارفين"[2] .

ودلالة قول مصطفى عبدالرازق تكمن فى رأينا فى قناعته كشيخه الإمام محمد عبده بما يمكن أن يقوم به التصوف فى تقويم الأخلاق

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 552.

(2) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ، دار المعارف ، القاهرة ، 1945 ، ص27.

وإصلاح النفوس ، وهذا هو الذى فعله الشيخ درويش بوصفه صوفياً فى أخلاق الإمام محمد عبده ، فقد كان هذا الشيخ كما يقول له أثر عظيم فى تربية أستاذه بشهادته رحمة الله عليه كما يقول ، وإن كان ليس بين أيدينا بيان عن هذا الشيخ نستطيع أن نفهم بالتفصيل أحواله النفسية وأن نتبين كيفية سلطانه على نفس مريده ، تلك النفس القوية الحرة"[1] .

المهم فى هذا القول الذى أوردناه آنفاً هو بيان الأثر الذى يمكن أن يلعبه الصوفى الصادق فى أخلاق من حوله ، فهو قادر على أن يؤثر فيمن حوله بما يجدون فيه من شمائل الأخلاق ، وبما يجذبهم إليه بقدرته على الإرشاد النفسى الهادئ فيلتفون حوله.

ولئن كان هذا الصنف من الصوفية نادراً فى رأينا الآن بل وكما يرى الشيخ مصطفى عبدالرازق ، إلا أن تأثيره فى النفوس لا يمكن التقليل من شأنه ، يدلنا على هذا قوله : "غير أن الذى رواه الأستاذ الإمام من حال شيخه يدل على أنه كان رجلاً ساذجاً نير البصيرة طيب القلب سمحاً سهلاً مؤمناً يقوى إيمانه بتفهم القرآن وبضروب سهلة من العبادة والرياضة ، وأمثال هذا الشيخ شذوذاً بين الأعداد الكثيرة من رجال الطرق ويكون لهم أثر روحى فى المستعدين من مريديهم بما فى نفوسهم من صفاء وما فى إيمانهم من قوة ليست مستمدة من ناحية علمية"[2] .

وقول مصطفى عبدالرازق إشارة مهمة للدور الذى يمكن أن يحققه الصوفى الحقيقى فى توجيه وتقويم ذوى الأخلاق الفاسدة فى مجتمعه ،

---

(1) المرجع نفسه ، ص 27.

(2) المرجع نفسه ، ص 32.

وفى الارتقاء بها إلى أعلى مدارك الكمال الخلقى ، وأكثر من ذلك فلربما تؤتى التربية الصوفية أكلها فى خلق المستعدين للكمال أكثر من غيرهم ، وهذا بالفعل ما أحدثه الشيخ درويش فى خلق محمد عبده ، فقد بلغت فيه طبيعة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة ، فقد كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص . وكان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً ، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هو أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله"[1] .

أوردت هذا النص من كلام مصطفى عبدالرازق بشأن ما أحدثه الشيخ درويش فى تربية أستاذه محمد عبده لأن الحاصل منه والذى يعنينا منه فى هذا المقام ، هو الذى يجعل من التصوف وسيلة لتهذيب النفس فى تربية الوجدان وبما يحقق للإنسان إنسانيته ويشده فى ذات الوقت إلى الملأ الأعلى بحكم جمعه –الإنسان– للجانبين معاً البدن والروح.

وفى هذه الحالة فمن شأن تعاليم الصوفية إن كانت بهذه الحيثية أن تربى الوجدان وتلطف السر وتجمل النفس وتزينها ، ولا جرم كان الشيخ محمد عبده صوفى الأخلاق من هذا الوجه على حد قوله[2] .

والحق الذى لا مراء فيه أن التصوف بهذا المفهوم الخلقى وبفاعلية شيوخه المحققين الكاملين فى تربية النفوس وتكميلها أخلاقاً ، هو الذى ارتضاه الأستاذ الإمام محمد عبده وارتضاه كذلك أغلب المصلحين

---

(1) المرجع نفسه ، ص 28.

(2) المرجع نفسه ، ص 28.

المحدثين والمعاصرين ، فهذا الجانب لا غبار عليه ولا غضاضة فيه على الإطلاق، ولذلك كان هو الوجه المقبول الذى نجده عند الإمام محمد عبده ، وهو وإن حارب المبتدعين المنحرفين من صوفية عصره وكما سيأتى بعد فإنه فى الوقت ذاته لم يغفل قيمة التصوف فى جانبه الخلقى التربوى وكما وضع أصوله المحققون من شيوخه الأولين ، ولهذا السبب فهو –أى التصوف– عنده تهذيب لأخلاق العامة وتقويم عاداتها وترويض النفوس بأعمال الدين[1] .

ونظرة فاحصة إلى شريعة الإسلام وما يلزم عنها من الأعمال والعبادات وإن كانت واجبة ومطلوبة على مستوى الجوارح الظاهرة ، إلا أن كمالها أيضا لابد من تحقيقه فى الجوارح الباطنة لأن الأعمال الدينية لا يكون لها اعتبار فى دين الإسلام بحسب صورها الظاهرة كما يقول مصطفى عبدالرازق ، إنما هى عنده معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها[2] ، كما يدل على ذلك قوله تعالى {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}[3] ، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إنما الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى"

.

---

(1) عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1969 ، ص 201.

(2) مصطفى عبدالرازق : الدين والوحى والإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1945 ، ص 2.

(3) سورة الحج : الآية 37.

وهو حديث كما قال الشافعى وأحمد يدخل فيه ثلث العلم[1] ، وعلى هذا فقد دل الحديث كما دلت الآية على أن المحك هو النية أو إخلاص القصد فى صحة العمل أو بطلانه ، وكما فهم شيخنا من قبل وهو أمر ينبغى أن يتحقق به العبد مع الحق والخلق ، وحق القول بالتالى مع قول واحد من الصوفية : "أن من لا إخلاص له فلا خلاص له على أى وجه كان"[2] .

فللتصوف إذن فاعليته وأهميته فى تقويم الأخلاق وتهذيبها والارتقاء بها ، وهو الأمر الذى دعانا إليه الدين من التحلى بمكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها وهو ما يمكن أن ينهض بتحقيقه التصوف الإيجابى ، لأن الأعمال الدينية كما يقول الإمام محمد عبده لا تصدر إلا عن الملكات والعزائم الروحية على حد قوله[3] .

ولعله لهذا السبب بالذات اهتم محمد عبده واقتنع فى ذات الوقت بالدور الذى يمكن أن يؤديه التصوف فى التربية الخلقية وإصلاح النفوس الفاسدة فى مجتمعه ، ولهذا لما يئس حاله من إصلاح شأن الأزهر رأى أن واجبه الدينى يحتم على أن يكمل الإصلاح لأن بقاء الأزهر متداعياً كما يقول على حاله فى هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه[4] .

---

(1) انظر صحيح البخارى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، بدون تاريخ ، المجلد الثالث ، ص 238.

(2) الميهنى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1969 ، ص329.

(3) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 50.

(4) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 193.

ولم يكن هذا أمراً ميسوراً عنده بحسب ما يقول إلا إذا قدر له وعثر على مجموعة من المريدين لأفكاره الإصلاحية ورباهم تربية خلقية ليكونوا بالتالى جنوداً للإصلاح الذى يرتضيه قناعة منه بدور التربية الصوفية فى تكميل النفوس على نحو ما لمسها من شيخه الشيخ درويش ، وأن يعيد الكرة ليحقق ما نذر له نفسه بشأن مهمته فى القيام بواجبه الدينى . وعبارات الإمام محمد عبده تقطع بهذه القناعة فى غير مواربة إذ يقول : "وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه -أى الأزهر- فإن دفعتنى الصوارف إلى اليأس من إصلاحه فإننى لا أيأس من الإصلاح الإسلامى ، بل أترك للحكومة وأختار أفرادا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التى ربيت عليها ليكونوا خلفا له فى خدمة الإسلام"[1] .

ولعل الذى أوردناه من قبل فى الفقرة السابقة من كلام الإمام محمد عبده ، يبين الدور الذى يمكن أن يلعبه الشيوخ من الصوفية المحققين فى إصلاح ذوى النفوس الفاسدة ، أخلاقيا فى مجتمعه ، فإن استطاعوا أن يحققوا هذا الدور لأسهموا بذلك فى خدمة دينهم ومجتمعهم . وبهذا يصبح للتصوف دوره الإيجابى للفرد وللمجتمع ، ويبدو أن مطلب الإمام محمد عبده كان عزيز المنال ، فقد كان العثور على هؤلاء المريدين الحقيقيين أندر من الكبريت الأحمر ، فقد شوه أتباع التصوف كل ما شيده الصوفية الحقيقيون . ومن ثم انتشرت بين عوام المسلمين كثير من الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة للصوفية فى عصره .

---

(1) المصدر نفسه ، جـ3 ، ص 193 ، وأيضا ص 552.

ولأجل هذا لم يتردد الإمام محمد عبده فى كشف مثالب هؤلاء المدعين للتصوف الذين شوهوا صورته الناصعة ، لهذا يحسن تجلية هذه النقطة والكشف عن هذه الممارسات الخاطئة ففى بيان هذه المثالب ما يكشف عن التصوف الحقيقى الذى يلف كثيرا من أوجه النقد للمدعين من صوفية عصره .

رابعاً : نقد الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة للصوفية

تبدو من أقوال محمد عبده نبرة الأسى والحزن لما آل إليه أحوال المسلمين فى شئون حياتهم ففيها ما فيها من سوءات صوفية عصره ما أفسد حقيقة الدين اعتقادا وأفعالاً فقد ابتلى المسلمون بأدعياء التصوف فبثوا فى النفوس ما يخرج بها عن قيم الدين الحنيف والتصقت بأذهان المسلمين وساوس تملك الجاهل وتربك العاقل إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح[1].

وكان من نتيجة ذلك أن الصوفية لم يعودوا مشغولين باستقامة السلوك مع الحق والخلق بقدر ما أصبح همهم القعود فى الخلوات وهجر الدنيا بدعوى الزهد والتقشف ومالوا إلى توريط غيرهم فى ما هم فيه وكما هو شأنه فى كل أمة[2] .

وهكذا صار التصوف بفعل الممارسات الخاطئة لأتباعه من الصوفية وبالاً على المسلمين لأنهم قد قعدوا فى أوطانهم عن العمل والأخذ بأسباب الحياة والكسب باسم التصوف فكانوا عالة على التصوف وأبلغ إساءة إلى الدين ، وحق للإمام محمد عبده أن يتندر على ما آل إليه حال

---

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 98.

(2) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

هؤلاء الصوفية فى وطنه وفى غيره من الأقطار العربية لما صرح قائلا : "ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البلة الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام"[1] .

فالعيب إذن ليس فى التصوف بما هو تصوف عند محمد عبده ، بل وعند غيره من المصلحين المعاصرين ، ومن قبل عند الفقهاء الأقدمين ، وإنما العيب فى الممارسات الخاطئة للمنتسبين إليه فى عصره وقبله ممن ابتعدوا كثيراً عن أصول التصوف كما بينها الشيوخ المحققون . ولذلك لا يتردد الإمام محمد عبده من نقد هؤلاء الأتباع الذين شوهوا صورة التصوف الناصعة الخالصة ، ولعلنا نلمح فى أقواله نبرة الضيق والأسى لما آل إليه حال التصوف والصوفية فى عصره وآية ذلك قوله "ترى فى قرانا وبلداننا درويشا فقريا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، ولا يلويه عن ذلك شيء . هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية راوياً حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الإسلام ، إنما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا"[2] .

ويعدد الإمام محمد عبده بعضا من الاعتقادات الفاسدة والممارسات الخاطئة لصوفية عصره كاشفا عن سوء مسلكهم لكل هذه الممارسات مبيناً

(1) المصدر نفسه ، ص 97.

(2) المصدر نفسه ، ص 61.

أنها تخرج بهم عن عقيدة الإسلام وشريعته وتسيء للإسلام الحنيف فى أذهان غير المسلمين ، فقد أخطأ هؤلاء المسلمون من جراء ما ساد فى عصرهم من أحوال الصوفية فتركوا الأسباب والأخذ بالسنن فى مطالب الحياة زاعمين أن توكلهم على الله والسكون لمجرى قضائه وقدره هو الذى يؤدى بهم إلى ما ارتضوه لأنفسهم .

ويصور الإمام محمد عبده ذلك فيقول : "إن الواحد منا إذا لاح فى ذهنه نور إلهى يرشده إلى طريق العلم، يأتيه معارض يقول له إن هذه الحالة الحاضرة هى ما قدر الله لا حيلة لنا فيها ، فالمرء متوكل على الله مسير حسب القدرة ، فعلينا بتسليم أمورنا إليه تعالى والتوكل عليه ، وبذلك ينطفئ النور الذى لاح بذهنه ، وبعد أن كان خطر بباله داعى العمل ينزع للبطالة والكسل ، والعجب أنهم يظنون أن هذه الوساوس من العقائد الدينية، ولكن الدين يتبرأ منها ، وما للدين عدو أضر من أمثال هذه الاعتقادات[1] .

إن مراد محمد عبده هنا نبذ التواكل لا هدم التوكل ، إن مقصده كذلك بيان سوء فهم المسلمين لعقيدة القضاء والقدر والتى أدت بأغلب المسلمين إلى أن يكونوا من المتواكلين لا المتوكلين تحت زعم القضاء والقدر ، ولم ينتبهوا إلى خطر ذلك عند الاحتجاج بذلك وعدم الأخذ بالأسباب والركون إلى الكسل وترك العمل احتجاجا بالقدر هو من عقائد الملحدين عند الإمام محمد عبده ، وقد دل القرآن الكريم على تشنيع عقائد من يسلك ذلك فقال تعالى {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 163.

مِن شَيْءٍ}[1] فلا يسوغ لأحد منا فيما يرى الإمام وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن أن يحتج بما كان يحتج به المشركون بزعم أنه متوكل ومن يفعل ذلك فهو فى رأيه كاذب زنديق على حد قوله[2] .

وإذا كان ذلك كذلك فليس من التصوف ولا من كمال روحانية الإسلام ترك العمل والسعى إلى الأخذ بالأسباب فى كل شئون الحياة ، فلم يفعل هذا فى الإسلام نبيه (صلى الله عليه وسلم) ولا صحابته رضوان الله عليهم ، فنحن نرى كما يقول الإمام محمد عبده : النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو إمامنا وقدوتنا لما بعث فى دياجير الجهل وتحكم سلطان الشرور وقبائح العادات فى الأمم التى أرسل إليها ، لم يقل أن ذلك ما أراده الله ، ولم يسلم أمره للقدر بترك العمل ، وكذلك أصحابه رضى الله عنهم أصابهم من الألم فى السعى ما أصابهم ، مع أنهم أشد الناس توكلا على الله ، وأكملهم تمسكا بالقدر فى الطريق ، فإذا كانوا قدوتنا كما هو الحق فلماذا لا نقتدى بسيرتهم وننبذ وسواوس المبطلين وهذيان العمى المغفلين[3] ، وعلى هذا فقد أخطأ المسلمون –كما يقول محمد عبده فى فهمهم لحقيقة التوكل وحقيقة القضاء والقدر ، فكان ما كان من هدم للأسباب والسنن الكونية وركون إلى الكسل وقعود عن العمل ووكل المسلم

(1) سورة الأنعام : الآية 148.

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 164.

(3) المصدر نفسه ، ص 64.

الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه[1] .

ولما كان الإمام محمد عبده كدأبه وديدنه حريصاً على توضيح حقيقة التوحيد بوصفها عمود الإسلام وذروة سنامه ولب أعماله ، فلهذا لم يتردد كذلك فى نقد ما وقع فى عقول بعض الصوفية قديماً فى تشويش هذه العقيدة على الرغم مما يعلمه من أن بعضهم قد يكون معذوراً فيما نطق به من أحوال وما جرى على لسانه من أقوال ، ولكن هذا لا يسوغ لهؤلاء الصوفية فى أن ينطقوا بما يشوش على الناس من أمر العقيدة ، ذلك لأن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة كما يقول الإمام محمد عبده أفسد نظامها واضطرب أمنها على نحو ما هو الحاصل من آراء الحلاج (المقتول 309هـ) ، وأمثاله فتضطر السياسة حينئذ للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة فيأخذ صاحب الفكر لا لأنه يفكر ، ولكن لأنه لم يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره فى غنى عمن يراه هو حق له[2] .

والحلاج الذى يرى محمد عبده فى أقواله شططا قد صدرت منه أقوال فى الحلول والاتحاد وما كان له أن يظهرها فى رأى الإمام محمد عبده ، بـل كان الأحرى به أن يكتمها ولأجل هذا فقد أباح بما لا ينبغى

---

(1) محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية ، ص 115 ، وانظر : الأعمال ، جـ3 ، ص 164 ، وأيضا للدكتور عثمان أمين : محمد عبده رائد الفكر المصرى ، ص 126 وما بعدها .

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 328.

obeikandi.com

أن يباح به لغير أهله من الصوفية، لذلك لا يتردد الإمام فى أن يقرر بشأنه ما يبدو فى رأينا خنقاً لحرية الفكر ، وآية ذلك قوله : "ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به ، وأنا لا أنكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا ، بل ربما حصل فيه شيء من ذلك وقتاً ، لكن خاص بمن يحصل لهم لا أن ينقله إلى غيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علماً"[1] .

ومع أن الحلاج الذى ذكره الإمام محمد عبده بالاسم وكذلك غيره كالبسطامى معاصره وغيرهما يدخلون فى عداد الصوفية أصحاب الشطحيات ، ومع أنهم لا يعتقدون فى حال صحوهم بعقيدة الحلول أو الاتحاد[2]، إلا أن حكم الإمام محمد عبده على الحلاج وعلى غيره يمثل حقاً .لا جدال فيه ذلك لأن الصوفية الإسلامية ينبغى أن تظل دوماً تعبيراً عن روحانية الإسلام بغير إفراط ولا تفريط ، وهى لكى تكون كذلك فلابد فيها من العقل والبصيرة معاً أو لنقل العقل والوجدان كما يحلو دوماً للإمام محمد عبده أن يقرنهما معاً ، فهما المحك الذى يقيد كل نزعات الغلو والإفراط[3] .

---

(1) المصدر نفسه ، جـ3 ، ص 552.

(2) انظر تحليلينا لشطحيات الحلاج والبسطامى من قبله فى رسالبتنا للماجستير بعنوان منهج الكشف عن صوفية الإسلام – غير منشورة – كلية الآداب جامعة المنيا – 1980 .

(3) راجع فى هذا الشأن موقف فخر الدين الرازى من أقوال الحلاج والبسطامى بصفة خاصة فى كتابنا فخر الدين الرازى والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، طبعة 2000 ، ص 191-199.

ebooks4arab...

والتوسل من الأمور البدعية فى الاعتقاد والتى لا يقرها أئمة الدين، ولهذا يبرأ منها الإمام محمد عبده لما رآها متفشية فى مسلك صوفية عصره والعوام من المسلمين ، فكل هؤلاء جميعاً جعلوا التوسل بالأولياء لازماً من لوازم ولايتهم وحظا من حظوظ مكانتهم فى قلوبهم ، ولأجل هذا هرعوا إليهم لفك الكربات ، وتوسلوا بهم لقضاء الحاجات ، ويظهرنا الإمام محمد عبده أن واحداً من أهل زمانه أرسل له خطاباً يقرر فيه إنكاره لبعض الناس توسلهم بجاه النبى إلى الله تعالى وبأوليائه ، وأمه لما سئل عن حكم التوسل بالنبى والتوسل بأوليائه أجابهم أن هذا أمر مخل بالعقيدة وأن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال ومخالف لعقيدة التوحيد وهو أنه لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى كما قال تعالى {فلا تدعوا مع الله أحدا}[1] ، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإن كان أعظم منزلة عند الله من جميع البشر وأعظم الناس وجاهة ومحبة وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر فى شىء ولا يملك للناس ضراً ولا نفعاً كما نصر القرآن ولا يتوسل إلى الله تعالى إلا بالعمل كما جاء على لسانه (صلى الله عليه وسلم) واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ... ولا معنى للتوسل بنبى أو ولى إلا باتباعه[2] لقوله تعالى : {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ}[3] ، وقوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ}[4] .

---

(1) سورة الجن : الآية 18.
(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 536.
(3) سورة الأنعام : الآية 153.
(4) سورة آل عمران : الآية 153.

وقد أكد الإمام محمد عبده ما قال السائل تعقيباً منه لجوابه ما سئل بشأن التوسل وأن قوله هو الاعتقاد الصحيح ولا يشوبه شوب من الخطأ وهو ما يجب على كل مسلم أن يؤمن بما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يعتقده ، فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) هو هذا المعنى من التوحيد كما قال تعالى : {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ}(1) ، والصمد هو الذى يقصد فى الحاجات ويتوجه إليه المربوبون على ما يطلبون فى ما يضعف عن قواهم ، فلا صمد إلا هو .. وزعم زاعم أن لفلان جاهاً عند الله إشراك جلى لا خفى ، والتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاث وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله وشبهة العدول عما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وسلم)(2) .

ولم يفت الإمام محمد عبده كذلك أن يفند دعاوى الضالين من أتباع الصوفية فى عصره الذين روجوا لبعض البدع بزعم أنه كرامة من الكرامات لأوليائهم المقربين ومن قبيل ذلك بدعة الدوسة ، وهى من أفظع البدع كما يقول الإمام وعندهم أن يطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم(3) . والأصل فى هذه البدعة وغيرها عند الصوفية وهى من صنع أتباع الصوفية لا من أصول الدين ولا من صنيع شيوخه المحققين ، ذلك لأن هذه البدعة لا أصل لها فى الدين كما يقول

---

(1) سورة الإخلاص : الآيتان 1 ، 2.

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 538-539.

(3) المصدر نفسه ، جـ2 ، ص 51.

الإمام وإنما هى كرامة فيما يقوله العامة منهم للشيخ يونس الذى كان يدوس بحصانه على آنية من الزجاج ولا تتكسر ، وهى مرة واحدة فيف يتبدل الزجاج بالإنسان وصارت عادة مستقرة[1] .

ويستنكر الإمام محمد عبده هذه البدعة وأمثالها من البدع التى التصقت بالتصوف أو بالأحرى بالدين والدين منها براء إذ لا شبيه ولا مثيل لها لا فى القرآن ولا فى السنة حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه ، أما دعوى أنها من الكرامات فهى باطلة عن أهل السنة والجماعة فإنهم بسطوا فى كتب التوحيد على أن شروط الكرامة ألا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها حسب إرادته ، فإن صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة ونحوها التى يتعاطاها كل من يأخذ عهدا على طريقة الرفاعى أو السعدى أو يتولى مشيخة السعدية أيا كان ، فلا تكون من قبيل الكرامة بل تعد من الحيل المذمومة ومن أجل ذلك بادر السيد البكرى وساعده أهل الشرع والعقل على إبطال هذه البدع المضرة بالدين والدنيا[2] .

ولا ينبغى أن يتبادر إلى الأذهان مما أوردناه سابقاً بشأن هذه البدعة نعنى الدوسة وأنها محض كرامة كما يقول أتباع التصوف فى عصره ، إلا أن هذا لا يعنى أن الإمام محمد عبده يستبعد إمكانية حدوث الكرامة ، وآية ذلك قوله : "فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث عن متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى

---

(1) نفسه ، ص 52.

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ2 ، ص52.

مكانة الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية"[1] .

فالكرامة إذن من حيث الإمكان ليست محل إنكار من قبل شيخنا فإن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية ، ولكن شيخنا يؤكد أن الذى يجب الالتفات إليه أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة على يد ولى معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة لأى ولى كان ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم[2] .

ومهما يكن من عدم قناعة الإمام محمد عبده بوقوع أى نوع من الكرامة على يد أى ولى بعد انتهاء عصر النبوة مع ما قد يكون فيه مخالفة لما استقر عليه أئمة الدين وعلمائه من قبله ، إلا أن ما دفع الإمام محمد عبده إلى هذا الموقف ما رآه من عناية كل أتباع الصوفية فى عصره بهذه الكرامات والافتتان بها وتداول وقوعها بين الناس ، يؤدى إلى تشويه صورة الإسلام فضلاً عن صورة التصوف الصحيح بحسب عقيدة الإسلام .

وعبارات الإمام محمد عبده تكشف عن غيرته على التصوف بسبب ذيوع مثل هذه الكرامات بين عامة المسلمين ودليلنا على ذلك قوله : "أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام

---

(1) نفسه ، جـ3 ، ص 486.

(2) نفسه ، جـ3 ، ص 487.

حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء ويتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون"[1] .

ومهما يكن من رأى الإمام محمد عبده فى الكرامة إلا أن الإنصاف أيضا يقتضى منا أن نؤكد على أن الصوفية المحققين لا يرون فى الكرامة شيئا لازما للصوفى إذ ليس بالضرورة أن تتلازم الكرامة مع الولاية بل لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة فى الدنيا كما يقول القشيرى لم يقدح عدمها فى كونه ولى"[2] .

وليس أدل على ذلك أيضا من قول الإمام الرفاعى (ت571هـ) : إنى لأستحى من الكرامة كما تستحى المرأة من الحيض[3] ، وأيا ما كان الأمر فليست الكرامات عند الكمل من الصوفية شيئاً مرغوبا فيه ما لم تقترن بالاستقامة ، وتلك عندهم هى الكرامة المعنوية ، أما الكرامة الحسية فليست بالضرورة شاهدة على ذلك ما لم تكن مقرونة بالاستقامة ، فإذا لم تكن كذلك فهى استدراج ومكر[4] .

---

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 487.
(2) القشيرى : الرسالة القشيرية ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور محمود ابن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1975 ، جـ2 ، ص 662.
(3) الرفاعى : البرهان المؤيد ، تقديم صلاح عزام ، دار الشعب ، القاهرة ، 1971، ص 58.
(4) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ، تحقيق عبدالرحمن محمود، عالم الفكر ، القاهرة ، 1983 ، ص 61 . وأيضا قوانين الإشراق إلى الصوفية فى كافة الآفاق ، ص 62.

ولم يقف نقد الإمام محمد عبده للصوفية عند حد البدع الاعتقادية بل امتد ليشمل البدع العملية فهذه وتلك كلها من الأمور التى لزمت من تقديس الأتباع لأوليائهم وشيوخهم فى أثناء حياتهم وبعد مماتهم فيشيدون لهم القبور تارة ويقيمون لهم الموالد تارة أخرى ، وليس أدل على ذلك مما رواه الإمام محمد عبده من أن واحداً من الوجهاء كان عنده فى أثناء مولد السيدة زينب ومعه جماعة آخرين فى شهر رجب ، فقال الوجيه للإمام محمد عبده أنه ذاهب لزيارة السيدة فلما سأله لما خصصت الزيارة لهذا اليوم قال لأنه يوم المولد . وأن هذه الليلة هى الليلية الكبيرة ، فقال له الإمام ما هذا المولد؟ هل يوم المولد أو الليلة الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين؟ ونهاه عن الذهاب فلم ينته وهم بالخروج فقلت له إننى لست مازحاً وإنما أتكلم الجد وأقول إن هذا العمل من أعمال الوثنيين وأن الإسلام يأباه ، وكل آيات القرآن فى التوحيد تنهى عن هذا وتذمه . إن الفاتحة التى تقرأونها كل يوم فى صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل ، تخاطبون الله تعالى بقول إياك نعبد وإياك نستعين، فإنكم تستعينون بغيره وتعبدون غيره ، ثم إن عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة إلى من تزورونه ، إذ معناه أنه محتاج إليكم وينتفع بفاتحتكم ثم تطلبون منه قضاء الحوائج[1] .

وأيضا لبيان حقيقة الكرامة عند أهل السنة والجماعة انظر رأى ابن تيمية فى مؤلفه : قاعدة شريفة فى إثبات المعجزات والكرامات ص 7 ، وكذلك فى كتابه: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص 548.

(1) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 555.

مثل هذه الممارسات الخاطئة فى توجه الأتباع إلى بعض قبور الأموات سواء من آل البيت النبوى أو من مشايخ الصوفية تعد من قبيل الأمور البدعية فى الاعتقاد والى لا تستقيم مع عقيدة التوحيد ، ولذلك كان طبيعيا أن يشدد الإمام محمد عبده النكير على مسلك من استعانوا بغير الله وتوجهوا إلى هذه القبور والأضرحة التى شيدوها لأوليائهم طلبا لقضاء الحوائج ودفعاً للكربات أولئك الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء مرضاهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح وهم كما يقول الإمام ناكبون وعن ذكر الله معرضون[1] .

إن حاصل قول الإمام محمد عبده تنبيه مهم فى رأينا على ما دل عليه الهدى القرآنى من ضرورة أن يبذل الإنسان جهده وإرادته فى ما يقوم به من الأعمال ، ومن ثم فلا تكون الاستعانة إلا بالله تعالى ، وهى لا تكون إلا عن عمل بذل فيه المرء طاقته ولم يوفيه ويخشى ألا ينجح وحينئذ يحق له طلب المعونة على إتمامه وهذا يدل عليه قوله تعلى **{إياك نستعين}** فقد أفاد كما يقول الإمام محمد عبده ضرورة تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد. وفى ذلك تخليص للنفوس من التعلق برق الأغيار ، وفيه –كما يقول محمد عبده– ما يفك إرادتهم من أسرار الروحانيين والشيوخ وفى ذلك أيضا ما يطلق عزائمهم من قيد المهينين الكاذبين من الأحياء والميتين[2] .

---

(1) محمد عبده : تفسير جزء عم – فاتحة الكتاب ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص35.

(2) المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

ولعل ما سبق يكشف عن ألمعية شيخنا محمد عبده فى نقده العنيف لكل الصور الخاطئة عند بعض الصوفية فى الاعتقاد أو السلوك نعنى الغلو فى حق الأولياء وتقديسهم والتوسل بهم لقضاء الحوائج وتفريج الكربات ، وهى أمور لازمت تصورهم للولاية ونجدها عند العامة بل وللأسف عند الخاصة منهم حتى استقر فى أذهانهم أن دوام التعلق بهم – الأولياء– لا يكون إلا بالإتيان بهذه الأمور مجتمعة ، ولهذا كان حريا بالإمام محمد عبده نقد أتباع الصوفية فى عصره لأن الحاصل منهم فى حق الأولياء لا يستقيم مع عقيدة الإسلام وشريعته ، فضلا عن أن الشيوخ المؤسسين للتصوف يبرأون منه . وحرص الإمام محمد عبده على ذلك تجلى أيضا فى مسلك مريده الأمين الشيخ مصطفى عبدالرازق فراح هو الآخر يشدد النكير على مسلك هؤلاء الصوفية الذين شوهوا صورته بفعل غلوهم فى حق أوليائهم نلمح ذلك جلياً فى قوله "ومسجد السيد البدوى مورد أهل الطرق ومجمع المجاذيب الذين يظن كثير من الناس أن لهم فى صفة الغيب لمحات"[1] .

والحق الذى لا مراء فيه أن الإمام محمد عبده وكذلك تلميذه مصطفى عبدالرازق قد أصابا معاً كبد الحقيقة لما شددا النكير على موقف الصوفية بشأن تقديس الأولياء فى حياتهم ومماتهم وفى تشييد الأضرحة وبناء المزارات فكل ذلك يشوه فى نظرهما ونظر الغيورين على الإسلام صورته الصحيحة ونصاعته . وحسنا فعل الإمام محمد عبده ما فعل فمثل هذه الأمور البدعية قد التصقت فعلا بأذهان الكثيرين من غير المسلمين

---

(1) مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ، ص 33.

obeikandi.com

فراح بعضهم يجعل من شيوع تقديس الأولياء وزيارتهم فى مقابرهم وتقديس مزاراتهم من الأمور التى يشترك فيها المسلمون جميعاً سواء أكانوا من أهل السنة أو الشيعة ، ولكن لأمانة بعضهم فقد أكد واحد منهم هو بطروشوفسكى بأن شيئا من هذا كله لم ينص عليه فى آيات القرآن نفسه[1]. وأحسب أننا بحاجة ماسة إلى أن نخلص من كل هذه الممارسات الخاطئة التى التصقت بالدين إذ ليس بالضرورة أن ينصفنا دوما المستشرقون خاصة فى أيامنا المعاصرة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وينتقد الإمام محمد عبده كذلك ما يشيع فى مجالس الذكر والحضرات من أمور بدعية كالطبل والزمر والصياح والصراخ والرقص وهى أمور ليست من الدين فى شىء وبالتالى فليست من جنس التصوف الصحيح ، إذ لم يبق منه عند المتأخرين إلا رسومه الظاهرة وهى أصوات وحركات يسمونها ذكرا يتبرأ منها كل صوفى[2] ، ومن مثالب الصوفية وسقطاتهم ما يحدث فى مجالس الأذكار والحضرات التى يقيمونها فى حضرة شيوخهم ويحدث فيها ما فيها من خروج عن حد الآداب التى تليق بالمسلم فى مجالس الذكر المشروع ، وقد سجل الإمام محمد عبده شيئاً مما يحدث فيها فقال : "فمن شأن بعض طرق المغاربة أنهم كانوا يجتمعون للذكر ويتخذون الطبل آلة لهم وبعضها كان شكله مستطيلا والبعض الآخر كان شكله دائرياً وكلها كانت تصدر أصواتا مع أصوات الطبول ، وأتوا

---

(1) بطروشوفسكى : الإسلام فى إيران ، ص 177 ، وأيضا من 180–182.
(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 387.

بألفاظ لا مدلول لها وكان من عاداتهم كما يقول الإمام محمد عبده الإتيان بمثل هذه العادة فى مسجد الإمام الحسين وفى مولده"[1] .

والحق أن ما سجله الإمام محمد عبده على الصوفية أمر لا يقبله الشيوخ الراسخون منهم ، فقد استنكروا ذلك تماماً ، إذ جعله الطوسى (ت387هـ) من زلات الصوفية ومن أغاليط أفعالهم[2] ، وزاد الهجويرى (ت466هـ) على ما قاله الطوسى أنه ليس له أصل فى الشريعة والحقيقة من حيث إنه باتفاق جميع العقلاء كما يقول الهجويرى "لهو حين يكون جداً ولهو حين يكون هزلاً لهذا لم يمدحه أحد من المشايخ ولم يغل فيه أحد على حد قوله"[3] .

ويدلى الإمام محمد عبده بدلوه فى مسألة الشيخ الذى يراه الصوفية منذ بدء طريقتهم عصب الطريق إلى الله لمن يسلك طريقتهم فعندهم لابد لكل سالك أو مريد من شيخ ومن ليس له شيخ فإمامه الشيطان وفائدته كما يقول بعضهم تدرج المريد فى مقامات الإنزال وتبعده عن القواطع والأشغال[4] ، ثم هو أيضا ضرورة تبين للمريد آفات النفس ورعوناتها فينتقل بسبب ذلك من التخلى إلى التحلى ، إذ لا يعرف الطريق إلا من

---

(1) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، القاهرة ، 1931 ، جـ2 ، ص134-135 ، وأيضا انظر كتابنا الإمام المجدد ابن باديس والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 1999 ، فقد وقفنا فيه طويلا عند هذه النقطة وغيرها . انظر بشأن الذكر وحلقات الرقص ص 101 وما بعدها .

(2) الطوسى : اللمع ، تحقيق طه عبدالباقى سرور ، والدكتور عبدالحليم محمود ، دار الكتب العربية ، القاهرة ، 1960 ، ص 530.

(3) الهجويرى : كشف المحجوب ، جـ2 ، ص 643-664.

(4) ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ، ص 238.

سلكها فلابد له من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح لتحصل السلامة من الرعونات[1] .

بيد أن هذا الشيخ الذى يعهد الصوفى أمرهم إليه بقصد تهذيب نفوسهم تصبح طاعته عندهم عمياء ، فيكون المريد له كالميت بين يد الغاسل ، ولابد له -كما يقول محمد عبده- من التسليم فى كل شىء من غير منازعة له حتى لو أمره بمعصية لكان عليه أن يعتقد أنها لخيره[2] .

على أن هذا الغلو للصوفية والذى يتمثل عندهم فى علاقة الشيخ بمريده مسألة لا يقبلها الإمام محمد عبده على هذا النحو الذى رآها من أتباع الصوفية فى عصره ، ولهذا لما سئل ذات يوم عن حكم من كان جاهلاً بما يجب عليه لله تعالى ومقصرا فيما يعرفه من الواجب هل ينبغى له أن يطلب شيخا مرشداً يضع يده فى يده ويعاهده على السمع والطاعة ليدله على الله . أجاب الإمام وقوله الفصل بما يفصح عن سلامة عقيدته وصفاء سريرته ، وبما يستقيم مع الصوفية المشروعة التى ارتضاها أو بالأحرى يرتضيها فى ضوء أصول الإسلام فقال : "ينبغى لك أن تطلب المرشد وأنا أدلك على طريقة الطلب وهى أن تعمل أولا بجد وإخلاص بما تعرفه من أمور الدين الظاهرة التى لا خلاف عليها إذا استقمت على ذلك، وظهرت لك أمورا أخرى دقيقة يشتبه عليك الحق فيها ، فاطلب من هو

---

(1) المصدر نفسه ، ص 239 ، 243 ، وأيضا انظر فى شأن الطريقة الأكبرية ، بحث منشور للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى الكتاب التذكارى عن ابن عربى ، القاهرة ، 1969 ، ص 318.

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ4 ، ص 377.

أشد منك محافظة على العمل بما تعمل وأعلم منك بتلك الدقائق ليرشدك إلى مسلك الحق فيها وقال له أتعرف أن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وأن إيذاء الناس حرام ، وأن التعاون على الشر حرام ، وأن الكذب والخيانة حرام ، وأن الصلاة والزكاة من الفرائض وأن الصدق والأمانة والتعاون على الخير ومواساة المحتاج من الفضائل المحمودة فقال السائل : نعم ، ولا أحتاج فيه إلى مرشد ولا أستاذ ، وحينئذ قال الأستاذ الإمام : إذا عملت بهذا كله بإخلاص فأنا أضمن لك على فضل الله تعالى القبول والرضوان وأن يهديك إلى الدقائق وكشف الشبهات فإنه قال : {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[1] ، وفى الحديث : "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم" . وتستغنى عن المرشد إذا لم تجده لقتله فى هذا الزمن ، وإذا وجدت من تراه سابقاً لك فى العلم والعمل وحسن الخلق وأردت أن تسترشد به ، فانظر وراء هذا شرطا واحدا ، وهو ألا يكون دين هذا الرجل دكانه ، أى لا يقبل منك جزاءاً على هذا الإرشاد ، فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فامدد إليه يدك ، وعاهده على الاسترشاد بعلمه وعرفانه ، فإذا كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك إلى يده إلا بالسكين فإنه لص قد اتخذ الدين حرفة واكتفى بالعمل بما تعلم والله يهديك ويسددك"[2] .

ولعمرى أن شيخنا محمد عبده محق فيما يراه بشأن هؤلاء المتاجرين بالتصوف من شيوخ عصره فما هكذا يكون التصوف الحقيقى،

---

(1) سورة العنكبوت : الاية 69.

(2) محمد عبده : الأعمال الكاملة ، جـ3 ، ص 549.

وما هكذا يكون أو ينبغى أن يكون عليه حال الصوفية المحققين ، فهم عنده لا يتكسبون ولا يتعايشون من التصوف ، لأنهم بمثابة مصابيح هداية للناس علماً وعملاً ، وهم إن كانوا كذلك كانوا بالتالى عنواناً للروحية الصافية والصوفية الخالصة المتنورة بنور الإسلام عقيدة وشريعة ، وتلك هى الصوفية الحقيقية التى لا إفراط فيها ولا تفريط وهذا هو الذى يجعلها وجعلها من قبل مقبولة لا مرزولة من قبل أئمة الدين الراسخين ومن بعدهم المصلحين المجددين من أمثال محمد عبده ومن سلك مسلكه.

obeikandl.com

مراجع الفصل

أولاً : مؤلفات محمد عبده :

1- محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تقديم وتحقيق الدكتور محمد عمارة، دار الشروق ، القاهرة 1414هـ/1993م

2- محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية مع مقدمة للأستاذ الدكتور عاطف العراقى ، دار سينا للنشر ، 1987 .

3- محمد عبده : تفسير جزء عم – فاتحة الكتاب ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .

4- محمد عبده : رسالة التوحيد ، مطبعة النصر ، القاهرة ، 1969.

ثانيا : المصادر والمراجع :

1- أبو الوفا التفتازانى : الإنسان والكون ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1975 .

2- أحمد محمود الجزار : الإمام المجدد ابن باديس والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 1999 .

3- أحمد محمود الجزار : الدين والأخلاق عند الإمام محمد عبده – الكتاب التذكارى عنه ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1995.

4- أحمد محمود الجزار : فخر الدين الرازى والتصوف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، طبعة 2000 .

5- أحمد محمود الجزار : منهج الكشف عن صوفية الإسلام – رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب جامعة المنيا – 1980 .

6- ألبرت أشفتيسر : فلسفة الحضارة ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1963 .

obeikandl.com

7- إميل (بوترو) : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ، ص 176.
8- ابن القيم : مدارج السالكين ، دار التراث العربى ، القاهرة ، 1982 .
9- ابن تيمية : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، 1399هـ .
10- ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ، تحقيق عبدالرحمن محمود، عالم الفكر ، القاهرة ، 1983 .
11- بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران ، ترجمة الدكتور السباعى محمد السباعى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة.
12- جمال الدين الأفغانى : رسالة الرد على الدهريين ، ترجمة محمد عبده ، مكتبة الإسلام العالمية ، القاهرة ، 1983 .
13- رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، القاهرة ، 1931 ، جـ2
14- الرفاعى : البرهان المؤيد ، تقديم صلاح عزام ، دار الشعب ، القاهرة ، 1971.
15- السلمى : طبقات الصوفية ، تحقيق الدكتور نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1969 .
16- السهروردى البغدادى ، عوارف المعارف ، دار الكاتب العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1983 .
17- صحيح البخارى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، بدون تاريخ ، المجلد الثالث .

obeikandi.com

18- الطوسى : اللمع ، تحقيق طه عبدالباقى سرور ، والدكتور عبدالحليم محمود ، دار الكتب العربية ، القاهرة ، 1960 .

19- عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1969 .

20- القشيرى : الرسالة القشيرية ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور محمود ابن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1975 .

21- مصطفى عبدالرازق : الدين والوحى والإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1945 .

22- مصطفى عبدالرازق : محمد عبده ، دار المعارف ، القاهرة ، 1945.

23- الميهنى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1969.

24- الهجويرى : كشف المحجوب ، جـ2 .

obeikandl.com